الاتحاد السوفياتي، قد يبرره مبدأ اخضاع النضال في كل بلد لصالح البروليتاريا العالمية. فمن الممكن ان يكون الاتحاد السوفياتي وافق على مشروع التقسيم «آملاً منه بأن المهاجرين اليهود الذين قاوموا الاضطهاد النازي سيكونون قوة ديمقراطية تقدمية في المنطقة، وسيسيرون في طريق دولة اشتراكية صديقة... او استجابة لرغبات بعض القادة الشيوعيين في اوروبا وللتقرب من الاحزاب الاشتراكية الاوروبية وهي تعطف عطفاً كبيراً على اليهود، وللتساهل مع عواطف يهود الاتحاد السوفياتي واوروبا الشرقية... او لأنه لم ير، بشكل كاف، احتمالات الموقف الثوري في بلدان المشرق العربي ولم يثق بهذه الاحتمالات...»[١٢١].

وان يكن موقف «حدتو» يمكن تبريره بمبرّرات موقف الاتحاد السوفياتي الذي يحدّد مصالح البروليتاريا العالمية، فان «حدتو» كانت تستند، في موقفها، ايضاً، الى الاساس النظري الذي وضعه كوريل لانشاء الدولة اليهودية. وبمعنى آخر، ان موقف «حدتو» قبول الدولة اليهودية لم يكن مبرره مجرد التطابق مع موقف الاتحاد السوفياتي، وانما كان مبعثه، أيضاً، الاساس النظري للحركة. وان يكن موقف «حدتو»، أيضاً، المؤيد للدولة اليهودية، هو، في النهاية، تأييد للبرجوازية اليهودية، وللصهيونية، كحركة رأسمالية استعمارية، فان «حدتو»، وباسم الأممية، ظلت تعمل ضد البرجوازية العربية والاستعمار البريطاني.

فكيف انتهى الخطاب الماركسي، في مصر الاربعينات، ليستبدل الاممية، كمنطلق الى العمل ضد الرجعية العربية والرأسمالية الاستعمارية، بالنزعة القومية، كمنطلق الى تأييد البرجوازية اليهودية والصهيونية كحركة رأسمالية استعمارية ؟

لعل التفسير الاول لذلك التناقض البنائي في الخطاب الماركسي، هو تفسير النشأة. فالاحزاب الشيوعية العربية «نشأت، اول ما نشأت، على يد افراد من الاقليات القومية، او العنصرية، او الطائفية، وفي اوساط هذه الاقليات... ان تركيب الاحزاب الشيوعية المحلية وقياداتها كان من العوامل الرئيسة التي حالت دون تحقيق الاندماج الضروري بين الحركة الوطنية والثورة الاجتماعية، بين العقيدة القومية والعقيدة الاشتراكية العلمية... لقد كان يستحيل على القادة الشيوعيين المحليين غير العرب ان يفهموا، فهماً صحيحاً، طبيعة الحركة التي يخوضها الشعب العربي ضد الزحف الصهيوني على فلسطين...»[١٢٢]. ولم تكن الجماعات الماركسية الرئيسة، في مصر الاربعينات، لتشذ عن ذلك. فقد كان مؤسسوها وقادتها من الاقليات القومية والجاليات الاجنبية في مصر[١٢٣]. فجماعة «الفجر الجديد»، وان استقلت عن الاجانب، ضمّت قيادتها صادق سعد وريمون دويك ويوسف درويش، وكانوا يهود الديانة من اصول غير مصرية، ثم اعتنقوا الاسلام. والجماعة التروتسكية، التي ضمّت كتّاباً وفنانين مصريين، كان خلفها مارسيل اسرائيل.

اما الحركتان الرئيستان، فقد اسسهما وقادهما الاجانب. فحركة «اسكرا» (الشرارة) انشأها هليل شوارتز، وضمّت لجنتها المركزية ايلي ميزان وسني سلامون وعزرا هراري وارمان بيليس؛ و«الحركة المصرية للتحرر الوطني» انشأها هنري كوريل، وسيطر على لجنتها المركزية، على الرغم ممّا ضمّته من مصريين، ثم انشق عنها مارسيل اسرائيل ليكوّن «تحرير الشعب». ومن الحركتين الرئيستين، «الحركة المصرية للتحرر الوطني» و«اسكرا»، تكوّنت باتحادهما الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو) القائدة بين الجماعات الماركسية، ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨، والتي تشرذمت حين حمي وطيس الصراع من اجل «تمصير» قيادتها. واذ نسجل ذلك، فان هدفنا ليس اتهام